رسول الانسانية

للدكتور محمد خلف الله أحمد

من حق مؤسس الحضارة الاسلامية علينا — وقد أظلنا عيد مولده — أن تحييه تحية الوفاء والعرفان بالجميل ، وان نتخذ من ذكريات عيده موسماً لصفو العزائم ، ورياضة النفوس ، والرجوع الى حظيرة الخير ، والبعد عن أسباب الفتن ، والتعلق بأهداب الحق ، والتمكين لمبادىء المحبة والسلام ، فتلك كلها مثل أحبها النبي العربي محمد بن عبد الله . وحققها في حياته وسلوكه ، ووجه إليها في ما تور سنته ، وتلقى فيها عن ربه كتابا سيظل على الدهر نبراسا يضيء للسارى معالم الطريق .

ولسنا نعلم - فيما درسنا من تاريخ عباقرة الانسانية - مؤسس دعوة جمع نظامه بين خيرى الدنيا والآخرة . ووفق بين مطالب الروح والمادة ، وسوى في الكرامة بين الأبيض والأسود ، وحقق التعاطف والتعاون بين الغنى والفقير وبنى العقيدة على أساس الحرية والاختيار ، وحض على عمارة الكون واستثمار خيراته ، وهيأ للنفس الانسانية مجال الرقى الروحى والخلقى ، كالنظام العالمى الذى أسسه محمد ، فاستظل بلوائه المسلمون من مختلف الأجناس والألوان .

هذه معان تتزاحم على خواطرنا ، حين نذكر شخصية محمد وحياته - نبيا ورسولا ، ومصلحا ومحررا ، وقائدا ومشرعا وهى معان ملهمة : توحى إليك بالشعر الرفيع إن كنت شاعرا ، وبالبحث والتحقيق ان كنت كاتبا أو مؤرخا وبالدرس والتحليل ان كنت نفسانيا أو اجتماعيا أو اخلاقيا ، وبالاسوة العملية

النافعة ان كنت زعيم أمة ، أو قائد ثورة ، أو باني دعوة من دعوات الاصطلاح الانساني ، وهذه المعاني ممثلة في الأدب الاسلامي القديم والحديث ، وفي الكتابات العربية التي تناولت الاسلام وتراثه . فلو أن باحثا ادعى أن شخصية محمد النبي العربي أوسع شخصيات التاريخ الحضاري في جوانبها ، وأحقها بالعناية والدرس ما كان في ذلك مخالفا الواقع ، ولا متجاوزا حد الانصاف .

والحقيقة أن هذه الظاهرة لها أسبابها ومبرراتها من التاريخ : فقد جاء محمد برسالته السماوية . مصدقا لما بين يديه من الرسالات ، حاضا على الايمان بانبيائها ورسلها ، مقررا أنها كلها تنبع من معين واحد ، وتهدف الى غرض واحد ، داعيا اتباعها الى كلمة سواء بينه وبينهم أن تكون العبادة لله وحده ، وألا يتخذ الخلق من دونه شريكا له ، وهكذا جاءت رسالة محمد خاتما للرسالات ، وبرهانا على صدقها جميعا ودعوة الى وحدة الدين - وهي وحدة تقوم على الايمان بالله واحد ، وعلى شعور الخلق جميعا بانهم مرتبطون برابطة واحدة مقدسة .

هذا الفهم لحقيقة الدين ظاهرة مهمة في تاريخ الاسلام : وفي عظمة مؤسسه وهي ظاهرة لها أثرها في التفكير الديني عند المسلمين ، وفي احترامهم وحبهم لأنبياء الله ورسله كافة ؟ وفي موافقهم من حرية العقيدة وعدم الاكراه في الدين ولقد يحدث أن يشذ شاذ فيتجنى على محمد ورسالته ، أو يحاول أن يشكك في أصل من أصول تلك الرسالة أو في حكمة مبدأ من مبادئها ، ولكن المسلم الحق لا يستبيح لنفسه أن يقابل التجني بمثله . أو أن يسيء الأدب في حق واحد من اصطفاهم رب السماء لرسالاته ، فان دينه يطالبه أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعا ومن هنا يجد المسلمون أنفسهم دائما في موقف واضح حين يدعو الدعاء في العصر الحديث الى التآلف بين أهل الأديان السماوية . والى وقوفهم معا في وجه المادية والالحاد المعطلين لمثل الانسانية وقيمها الروحية .

وشيء آخر يجب أن يذكر في معرض الحديث عن محمد الرسول ذلك هو

العنصر التاريخي : جاء النبيون بالآيات فتمرنت حسدقا ـ كما تقول شوقي ، وجاء محمد بآية مستمرة على الدهر ، محفوظة من التحريف والتبديل ، باقية الأثر في حياة ملايين الناس وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وثقافتهم وتفكيرهم :

هذا ـ اذن ـ هو جانب الرسالة السماوية من حياة محمد وعظمته ،

وهناك جانب آخر ، وهو جانب محمد الانسان العربي ، المعروف النشأة ، والتاريخ والسيرة ، والصفات والملامح ، محمد الذي تعبد كما يتعبد كل بشر من ذوي النفوس الصافية المتألهة ، والذي أعد نفسه بالعبادة والتفكير لتلقي رسالة ربه ، والذي جاهد كما يجاهد كل بشر في سبيل عقيدته ، والذي أوذي فصبر ، لم تضعف له عزيمة ، ولم يتنبه وعد أو وعيد ، ولم يقابل اساءة قومه الا بطلب الغفران لهم ، حتى إذا اذن الله أن يعطي الدين سياجه البشري من من القوة والكفاح ، سبل محمد سيفه ، وناضل في مقدمة الصفوف ، وثبت في مواقف الحق ومضى إلى غايته ، يبني أمته ، ويضع لها قواعد حياتها ، ونظام اخلاقها ومعاملاتها ، حتى اذا أتم وضع الأساس ، واختاره الله لجواره ، ترك الأمة العربية موجدة الهدف ، متينة القواعد مشدودة السواعد ، متأهبة لحمل ألوية الدين الحنيف الى أقصى أرجاء المعمورة .

كانت حياة محمد ـ اذن ـ مرحلة لها جلالها في تاريخ البشرية كلها : فقد تكشفت عن دين واضح الأصول ، وشريعة متماسكة البناء ، وأمة مستعدة لحمل مشعل الحضارة ، وفلسفة في الحياة كلما ارتقت الانسانية وجدت فيها جمالا والهاما وهداية .

والجانب الثالث الذي يؤلف فصلا كبيرا في كتاب عظمة : محمد ، مأثرته حياته وسيرته وتعاليمه وكتابه وحديثه من ينابيع المعرفة والثقافة : فأما حياته فقد بعث طائفة من أول العلم على أن يعنوا بتتبع سيرته ، ويحققوا أحداثها ، وينظروا بالعين الفاحصة فيما نسج حولها من قصص ، وينهبوا الى ما فيه من تزيد ، وبذلك مهدوا السبيل لنشأة علم التاريخ عند المسلمين ، وبدأوا تلك

السلسلة من الجهود التى ظهرت ثمرتها عند ابن هشام والطبرى وابن الأثير وابن خلدون والمقريزى وغيرهم .

وأما كتابه فقد أيقظ عقول العرب وغيرهم من الأجناس التى اعتنقت الاسلام — أو دانت لسلطانه — وبث فيهم نهضة فكرية خصبة الجوانب ونبه العرب الى العناية بلغتهم فضبطوا مقاييسها ، وحددوا نظمها ، والى العناية بأدبهم ، فجمعوا متفرقه ، واستنفذوا ثروته من يد الضياع والنسيان ، والى النظر فى ذوقهم فبحثوا ظواهره الجالية والبلاغية . وبذلك جمعوا حول القرآن دوائر من المعارف فى التفسير واللغه والأدب والنقد والبلاغة وأسرار التشريع .

وأما حديثه فقد علم هذه الأمه معنى التحقيق والتدقيق ، فكان العالم من علمائها يرحل الأشهر الطوال ، فى طلب نصوص الحديث يتعرف سيرة رواتها ، ويقابل بين ما أثر من صيغها . وقد نقلوا هذا الميدان الذى أفادوه فى دراسة الحديث إلى ميدان آخر من ميادين المعرفة هو الادب واللغة ، فنشأ فيه علم كبير هو علم الرواية ، وتخصص فيه علماء مشهورون كما تخصص البخارى ومسلم وغيرهما فى رواية الحديث :

وثمت جانب رابع من حياه محمد وهو أدبه مع أهله وسيرته فى صحابته ، وتعهده لاتباعه ، وطريقته فى تربية النفوس ومعالجه أدوائها ، وحبه لربه ، وخشيته منه ، وموقفه من الحياة ، وما تجلبه المقادير من ثكل ولد أو فقد عزيز ، وما إلى ذلك مما سجلته كتب السيرة فى استقصاء وتفصيل .

هذه الجوانب من حياة النبى العربى مصورة فى الادب الاسلامى تصويرا يختلف حسب اختلاف الاحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية التى مرت بالمسلمين . ويبدو هذا الاختلاف ، فى شكل طريف إذا وضعنا — مثلا — بردة البوصيرى وما نسج على نهجها ، إلى جانب مطولات الرسائل

والقصائد التى كان الاندلسيون يدبجتها فى ذكر الرسول ومناقبه ، ويلقونها فى المناسبات العامة التى كانت تقام لاحياء المولد ، أو يرفعونها إلى مقام الرسول ، يصفون فيها أحوال زمانهم ، أو يشكون عدوان الاعداء على بلاد الاسلام ، أو يحنون إلى منازل الوحى ومعاهد الرحمات فى مكة والمدينة ويتضح الفرق أكثر إذا وضعنا كل أولئك إلى جوار قصائد شوقى فى نهج البردة ، وذكرى المولد وغيرهما ، وإلى جوار المؤلفات التى أخرجها كتابنا المحدثون عن سيرة الرسول وعقريته ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه انك واجد فى كل هذه الثروة من الادب - رغم اختلاف التصوير والنزعه ، طابعا عاما مشتركا يقوم على الحب الخالص للرسول والاجلال لشخصه والايمان بصدق رسالته وجمال شريعته .

فالنغمة التى تسمعها من ناظم الموشحة الاندلسية فى القرن السابع الهجرى إذ يقول مناجيا الرسول متصورا مكانته فى نظام الوجود .

يا مصطفى والخلق رهن العدم ... والكون لم يفتق كمام الوجود
مزية أعطيتها فى القـــدم ... بها على كل نبى تسود
مولدك المرقوم لما نجم ... أنجز للامة وعـــد السعود
ناديت ، لو يسمح لى بالجواب ... شهر ربيع - يا ربيع القلوب
أطلعت للهدى بغير احتجاب ... شمساً ولكن مالها من غروب

هذه النغمة تسمع شبيهتها من شاعر العروبة والاسلام فى العصر الحديث اذ يهتف - ولكن على لحن آخر - مبرزا أسرار الشريعة السمحة التى جاء بها محمد .

بك يا بن عبد الله قامت سمحة ... بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهو حقيقة ... نادى بها سقراط والقدماء
فرسمت بعدك للعباد حكومة ... لا سوقة فيها ولا امراء
لله فوق الخلق فيها وحده ... والناس تحت لوائها أكفاء
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل فى حق الحياة سواء